

جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تدوين تاريخ الجزائر
مبارك الملي وأحمد توفيق المدني أنموذجاً.

The Efforts of the Association of Algerian Muslim Scholars in
Codifying the Algerian History

متشاط عبد الغني^{1*}

جامعة حسية بن بوعلي الشلف (الجزائر) العنوان الالكتروني المهني للباحث: metchat2002@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/10/06 تاريخ القبول: 2021/12/24 تاريخ النشر: 2022/11/20

ملخص: كانت الكتابات التاريخية ذات التوجه العربي والإسلامي زمن الاستعمار الفرنسي تعتبر جريمة كاملة الأركان تستحق العقوبة الزاجرة، فيحكم الكاتب ويسلط عليه أقصى العقوبة وتصادر كتاباته، خاصة بعد إصدار قانون المنظومة التعليمية سنة 1904م والمتضمن استبعاد التاريخ العربي والإسلامي والتاريخ المحلي، وكذا التعريف بجغرافية الجزائر الطبيعية والبشرية، ولم يتوقف طغيان الإدارة الفرنسية عند هذا التصديق بل تعداه إلى اشتراط منح رخص التعليم العربي الحر للمعاهد والمدارس باستبعاد دراسة مادة التاريخ، وهكذا تقلصت الكتابات التاريخية ذات التوجه العربي والإسلامي، وأكثر ما كتب منها بقي طي الكتمان ولم ينشر في الجزائر وكان عدد المؤرخين يعد على رؤوس الأصابع، حتى نجم منتصف القرن العشرين شلة من كتاب الحركة الإصلاحية والذين أخذوا على عاتقهم إعادة بعث تاريخ الأمة تدوينا ونشرا، ولعل أبرزهم شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كمبارك الملي، وأبو يعلى الزواوي، وأحمد توفيق المدني، وقد كانت كتاباتهم نبراسا يهتدى به الطلبة آنذاك ومعينا لنشر الوعي وإعادة إحياء هوية المجتمع الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: التاريخ الإسلامي، التعليم العربي، الإدارة الفرنسية، المعاهد، المدارس، المؤرخين، الكتابة العربية.

Abstract: Historical writings with an Arab and Islamic orientation at the time of French colonialism were considered a full-fledged crime that deserved a repressive punishment to the fact that historian would be tried and given the worst penalty while his writings would be confiscated, especially after the issuance of the Education System Law in 1904 AD, which included the exclusion of Arab and Islamic history and local history, and the denial of the recognition of Algerian geographical and human identity. Moreover, the French administration went further to stop granting licenses to teach Arabic at institutes and schools through excluding the study of history. Accordingly, historical writings with an Arab and Islamic orientation shrank, and what was secretly written was not published in Algeria. It was until the mid-twentieth century that a group of Algerian writers, belonging to the reform movement, took it upon themselves to resurrect the national history and publish it. Among them, one may cite the sheikhs of the Association of Algerian Muslim Scholars, such as Mubarak Al-Mili, and Abu Ya'la al-Zawawi and Ahmad Tawfiq al-Madani, whose writings were guiding lights for students at the time and aids to spreading awareness and reviving the identity of the Islamic community.

Islamic history Arabic education French administration institutes .. Arabic writing

توطئة (مقدمة):

* متشاط عبد الغني

لقد كان لسياسة الاستعمار الفرنسي بالغ الأثر في انتشار الجهل والأمية بين أفراد المجتمع الجزائري، حيث ارتكز أسلوب الإدارة الفرنسية عادة اجتياحها للبلاد على هدم المنظومة التعليمية والتربوية للجزائريين، وذلك من خلال محاولة القضاء على اللغة العربية باعتبارها أهم رافد من روافد المعرفة - كما عمدت لغلق المدارس والزوايا، و استولت على الأوقاف التي تعد المورد الرئيسي لتمويل مؤسسات التعليم الديني، وحولت عديد المساجد لكنائس وأديرة، تمهيدا لتغريب المجتمع و طمس تاريخ الأمة العريق.

نال علم التاريخ نصيب من هذا التضيق والإقصاء الممنهج، فبالإضافة لنهب المخطوطات العتيقة وإتلاف الكتب النفيسة التي كانت موجودة بمكتبات الزوايا والمساجد، قام الحاكم العام الفرنسي بتاريخ 24 ديسمبر 1904م بإصدار جملة من القرارات التعسفية ضمنها قانون التعليم بهدف تضيق الخناق على مؤسسات التعليم العربي، وكان من ضمن هذه القرارات منع تدريس مادة التاريخ في هذه المؤسسات، وذلك بهدف إحداث القطيعة بين الشعب الجزائري وتاريخ سلفه العريق، ورغم أن الكتابات التاريخية باللغة الفرنسية وجدت قبل وبعد هذا التاريخ وان لم ينشر بعضها - إلا أن الكتابة العربية تكاد تكون شبه منعدمة، حتى بزغ للوجود الحركة الإصلاحية التي حمل شعلتها ثلة من شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فكان لب دعوتهم وجوهرها هو العودة بالأمة الإسلامية لسالف عهدها وذلك بنبذ الشرك بمختلف مظاهره ومحاربة البدع المحدثه في دين الله العظيم ومحاولة ربط حاضر الأمة بماضيها، ولن يتم لهم هذا إلا بنشر العلم الشرعي الصحيح، وتدريس تاريخ الأمة المجيد لأبناء ذلك الجيل، فما هي الجهود التي بذلتها جمعية المسلمين الجزائريين في سبيل النهوض بالكتابة العربية لتاريخ الجزائر عبر مختلف الحقب ؟ وفيما يتمثل إنتاجهم الفكري والعلمي ذو التوجه العربي؟

1- تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م بنادي الترقى بالعاصمة الجزائر على يد رائد النهضة الإصلاحية عبد الحميد بن باديس (الزركلي، 2002م، ص289) (نويهض، 1980، ص 29) (بوقرة، 2009، ص116)، بمساندة عصابة من إخوانه المصلحين والعلماء* (الإبراهيمي، 1997، ص278) الذين شكلوا المكتب التأسيسي واختاروا ابن باديس رئيسا للجمعية ومحمد البشير الإبراهيمي** (نويهض، 1980، ص13) نائبا له والأستاذ محمد الأمين العمودي***** (يخلف، 2013، ص141-142) (بوشريخة، 2015، ص106-109) كاتبا عاما بمساعدة الشيخ الطيب العقبي (مراد، ص119) (بشنون، 2012، ص30).

* تعود فكرة تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لسنة 1913م حينما التقى الشيخ البشير الإبراهيمي بالإمام عبد الحميد بن باديس بالحجاز، وكانوا يتسامرون بالمسجد النبوي يتبادلان وجهات النظر للقيام بأمر الأمة وتخليصها مما هي فيه، يقول البشير الإبراهيمي: " كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيرا للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضة الشاملة وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة 1913م هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين التي لم تبرز للوجود الا في سنة 1931م".

** محمد بن البشير بن عمر الابراهيمى، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعضو المجامع العلمية العربية في القاهرة ودمشق وبغداد، وأحد رجال الإصلاح الاسلامي، خطيب من الكتاب البلغاء العلماء بالادب والتاريخ واللغة وعلوم الدين، كان مولده بأولاد ابراهيم بسطيف من عائلة تنحدر من نسب علوي ادريسي شريف، درس بمسقط رأسه ثم هاجر للمدينة النبوية وبقي في المشرق الاسلامي لغاية 1921م حيث رجع للجزائر واشتغل بأمر الدعوة مع رفاق دربه من علماء الجمعية لغاية استقلال البلاد وكانت وفاته سنة 1965م ببيته بالعاصمة.

*** محمد الأمين العمودي، ولد سنة 1890م بوادي سوف، تربى يتيما في كنف عائلة فقيرة، تلقى تعليمه الأولي بمسقط رأسه ثم رحل لقسنطينة وأتم تعليمه بالمدرسة الفرنسية الاسلامية، بعد تخرجه عمل في سلك القضاء كوكيل شرعي في محكمة بسكرة، ثم صار عميدا للوكلاء بالعاصمة، تقلد منصب امينا عاما لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لغاية سنة 1936م، كان العمودي من فرسان الكلمة صحفيا ومترجما حاذقا، كتب في جريدته الخاصة " الدفاع" وكتب في غيرها من الجرائد الاصلاحية كجريدة الاصلاح وجريدة البصائر، اغتالته يد الارهاب الفرنسية سنة 1957م.

**** الطبيب بن محمد بن صالح العقبي-نسبة لبلدة سيدي عقبة- ولد ونشأ في أسرة متوسطة الجاه سنة 1890م، هاجر مع أفراد عائلته للحجاز وهو بعمر الخمس سنين فنشأ بها وقرأ على علمائها وبسبب مقالاته المناوئة للوجود العثماني ثم نفى من طرف الأتراك إلى الاناضول عام 1916م، ثم رجع للجزائر واستقر ببسكرة للوعظ والارشاد كما كتب في جريدتي الحق وصدى الصحراء وأسس جريدة الاصلاح، وكان نشيطا في الدعوة للإصلاح بنادي الترقى، ساهم في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م وبقي وفيها لها حتى وفاته المنية بعد أن أنهكه مرض السكري سنة 1960م.

أسندت مهمة أمين مال الجمعية للشيخ مبارك المليبي *****(نويهض، 1980، 325-326)(تميم، 2008، ص20) ينوب عنه إبراهيم بيوض، وكان ذلك يوم الثلاثاء 05 ماي 1931م *****(بوطبة، ص166-167) (بن رحال، 2006، ص183-186).

كان هدف تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعليمي دعوي بالدرجة الأولى، وهو ما نجده مدونا في الفصل الرابع من قانونها الأساسي ' القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والفجور، فكل ما يفسد على الناس عقولهم أو يضيع عليهم أموالهم فهو من الآفات، ولهذا حاربت الجهل والجمود والدجل والخرافة وكل أنواع الأباطيل، وكل واقف في طريق التعلم والتعليم.' (بن باديس، 1936، ص2).

وقد جاءت تصريحات رئيس جمعية العلماء ونائبه موافقة لما ورد في القانون الأساسي للجمعية، حيث صرح عبد الحميد بن باديس على هامش التأسيس قائلا: ' إن الغرض من تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو محاربة الخرافات والشعوذة التي عمت البلاد بسبب الطريقة والطرقين.' (بوصفصاف، 2009، ص99) وفي تصريح آخر له كذلك كما جاء في خطابه في اليوم الثالث حيث صرح قائلا: ' من مقاصدها جمع شمل هذه الطائفة المتفرقة لتتعاون على ما هي مهياة له من نصح الأمة وإرشادها لما ينفعها في دينها ودنياها.' (لهالي، 2012، ص32).

كان اهتمام علماء الجمعية بتاريخ الأمة الحافل من أول يوم من تأسيسها أكبر من أن يوصف، بل كان مقصدا أساسيا لقادتها ومؤسسيها، وهاهو نائب رئيس الجمعية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بين في خطابه أن من أهداف تأسيس جمعية العلماء هو: '..إحياء مجد الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية'(الإبراهيمي، 1997، ص133) ونقل الأستاذ أبو القاسم سعد الله عن أحد أعضاء الجمعية الذي لم يفصح عن اسمه سنة 1935م قائلا: 'أن أهداف الجمعية هي إحياء الإسلام بإحياء القرآن والسنة، وإحياء اللغة العربية وآدابها وإحياء التاريخ الإسلامي وأثار قاداته.' (سعد الله، 1992، ص86).

وقد أخذ مشايخ الإصلاح المنضويين تحت مظلة جمعية العلماء المسلمين على عاتقهم تدريس تاريخ الجزائر وإعادة صياغته بما يسهل على جيلهم آنذاك فهمه واستساغته، فنبغ منهم جماعة لا بأس بها أولت عناية منقطعة النظير لهذا الفن العريق، وجردت أقلامها لذلك كتابة في جرائد لسان حال الجمعية، وتأليفا للكتب وتحقيقا للمخطوطات سواء قبل ثورة التحرير أو بعدها أو بعد استقلال البلاد وتخليصها من براثن الاستعمار الفرنسي.

2-الكتابة العربية لتاريخ الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي

كانت الكتابات العربية لتاريخ الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي نادرة بسبب تضيق الإدارة الفرنسية، ومع بزوغ حركة الإصلاح الديني والاجتماعي الذي باشره شيوخ الجمعية انتعشت الكتابة التاريخية، وقام بعض منتسبي الجمعية من المفكرين والمشايخ برفع التحدي من أجل الدفاع عن الأمة ضد كتابات المؤرخين الفرنسيين، ومقالات الصحفيين المغرضين ممن حاول محو هوية الشعب الجزائري(ميسوم، 2012، ص308).

في هذه الاثناء برز للوجود ثلة من هؤلاء العلماء الميامين الذين وضعوا أسس للمدرسة التاريخية الجزائرية ذات التوجه القومي العربي، ولعل من أبرزهم الاستاذ مبارك بن محمد المليبي صاحب كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث ورسالة الشرك ومظاهره، والوزير القدير، الصحفي والكاتب المؤرخ أحمد توفيق المدني.* (المدني، 2009، ص7) (صاري، 2007، ص537).

**** مبارك بن محمد بن مبارك الهلالي المليبي، مؤرخ كاتب من رجالات الإصلاح، ولد بالميلية وتعلم بالزيتونة بتونس ومنها تخرج بشهادة التطويع، من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأحد ألمع كتابها، له كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث وكتاب الشرك ومظاهره، وله مجموعة مقالات منشورة في الشهاب والبصائر. استقر بعد مقدمه من تونس بمدينة الاغواط بتوجيه من الشيخ ابن باديس حيث مكث بها سبع سنوات، لينتقل لمدينة ميله، توفي الشيخ مبارك المليبي سنة 1945م متأثرا بداء السكري.

***** ابراهيم بن عمر بن بابة بن ابراهيم بيوض، لبياض بشرته، من مواليد 1899 في القرارة بغرداية ووالده من أعيان البلد، حفظ القرآن بكتاب القرية، امتاز منذ صغره بالحفظ والذكاء والفصاحة وقوة البيان، ألهته هذه الصفات ليصير عضوا في حلقة العزابة الاباضية بالقرارة، ثم صار خطيبا وواعظا بمسجدها، شارك سنة 1931م في تأسيس ج ع م ج وصياغة قانونها الاساسي، لم يبقى ابراهيم بيوض كثيرا في ج ع م ج كعضو فيها بسبب ارتباطاته ونشاطه في معهد الحياة بالقرارة، دخل بعدها المعتزك السياسي وكان له موقف من فصل الصحراء عن الشمال، توفي الشيخ بيوض سنة 1982م عن عمر 82 عاما.

* أحمد توفيق بن محمد بن أحمد المدني الجزائري ثم الغرناطي، من مواليد تونس سنة 1899م، من أسرة عريقة النسب، فتربى في كنفها على مكارم الاخلاق، دخل الكتاب بتونس وحفظ القرآن ثم انتقل للزيتونة عام 1913م، والتزم المدرسة الخلدونية عند الشيخ حسن حسني عبد الوهاب، فكان وراء توجيهه للعناية بعلم التاريخ، اعتقل سنة 1915م بسبب مناهضته للاحتلال لغاية 1918م، أسس الرابطة القلمية سنة 1924م للتضامن الفكري والعلمي، تم طرده من تونس للجزائر سنة 1925م أين التقى بشيوخ الإصلاح وأسس معهم ج ع م ج سنة 1931م، صار فيما بعد أمينا عاما لها ثم عضوا في الحكومة المؤقتة، وبعد الاستقلال سفيراً في دولة باكستان، توفي احمد توفيق المدني سنة 1983م.

3-إسهامات علماء الجمعية في الكتابات التاريخية

أ- مبارك الميلي: يعتبر مبارك الميلي من أوائل من تعرض لتاريخ الجزائر بشمولية وروح وطنية لم يسبق إليها حيث أنه كتب تاريخا للبلاد منذ العصر القديم للعصر الوسيط وصولا للحقبة العثمانية، وقد كان كتابه ردا على كتابات مؤرخي المدرسة الكولونيالية(مياد، 2020، ص8) الذين أشادوا بالاستعمار الفرنسي محاولين ايجاد مبررات لاحتلال الجزائر واستعباد شعبها المسلم وإحداث القطيعة بين فئات الشعب الجزائري كادعاء المدرسة الفرنسية أن البربر شعب يرجع انتمائه العرقي للرومان وأن العربية والإسلام لسان وديانة دخيلان على هذه البلاد(عمارة، 2008، ص93-94).

قام الشيخ مبارك بن محمد الميلي بتأليف الجزء الأول من تاريخه سنة 1928م ثم تلاه الجزء الثاني عام 1932م وقد كان حينها مقيما بالاغواط، فرغم انشغالاته الدعوية ونشاطاته الصحفية ومعاناته الصحية الا أنه لم يتوان في إخراج تاريخه في جزئيه الأولين غداة احتفال الفرنسيين بمئوية احتلالهم للبلاد(عمارة، 2008، ص97). متخطيا كل هاته الصعاب، ضف لذلك عدم المام الشيخ باللغة الفرنسية التي يحتاجها كل مؤرخ موضوعي تمكنه من الاطلاع على ما يكتبه الخصوم مما دفع به للاستعانة بأصدقائه ممن يتقن اللغة الفرنسية لترجمة معاني الجمل والنصوص التاريخية (المدني، 1948).

تميز أسلوب مبارك الميلي في كتابته للتاريخ بالموضوعية والأمانة ومحاولة ربط الأحداث بعضها ببعض في تسلسل متناسق سلس، فبدأ في الجزء الأول بوصف لجغرافية البلد واقتصادها كتوطئة للكتاب ثم قسم عمله الى أبواب سبعة، أولها الحديث عن إنسان العصر الحجري ثم تطرق في الباب الذي يليه للكلام عن البربر فالفينيقيين بعدهم ثم انتقل للحديث عن الرومان فالوندال ثم رجع للكلام عن الإمارات البربرية، وكذا الشأن مع جزئيه الآخرين فانه سار فيهما على نفس المنوال مرتبا للأحداث ورباطا بينها مستعينا بالمنهج الوصفي في سرده لحقب التاريخ المتعاقبة على هذا الوطن.

ان المتصفح لتاريخ مبارك الميلي لابد أن يلاحظ تأثره بأراء ابن خلدون تأثرا كبيرا فتجده يقتطف منه فقرات يستدل بها في كل باب من أبواب كتابه، كما تجده يؤيده في بعض أرائه واستنتاجاته وينتقده في قضايا أخرى(عمارة، 2008، ص97). ثم ان الظروف التي كتب فيها مبارك الميلي تاريخه أثرت في التوجه الذي سار عليه المؤرخ وكونها أول تجربة لتدوين تاريخ الجزائر، فلا بد أن تبرز نقائص كثيرة في عمله كتأثره ببعض الكتابات الفرنسية وقلة المصادر والمراجع العربية التي اعتمدها في كتابة تاريخه، دون إغفال المضايقات التي كان يتعرض لها على غرار ما تعرض له رجال الإصلاح خلال تلك الحقبة، وكذلك حالته الصحية التي ازدادت سوءا بعد إصابته بمرض السكري(مياد، 2020، ص8).

إن الهدف الذي كان يصبو إليه مبارك الميلي من خلال تدوينه لتاريخ الجزائر قد بلغه بنسبة كبيرة، وهو رفع الجهل عن أمة مغلوب على أمرها من خلال جمع تاريخ الجزائر في كتاب يحكي مآثر الأجداد بلغة عربية بسيطة ومفهومة ومحو القطيعة بين الأمة وتاريخها، وتصحيح المغالطات التي زرعتها المدرسة الاستعمارية من خلال كتاباتها يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله: "من يقرأ مقدمة كتابه يجده مركزا كثيرا على ذلك الدافع ونعني به الجهل بالتاريخ الوطني.." (سعد الله، ص305).

أ-1 ثناء العلماء على تاريخه

كان الامام ابن باديس من أوائل من أثنوا على تاريخ الرجل وثنن كتاباته في رسالة وجهها الى الشيخ مبارك الميلي في صيف 1928م، وقد صدر بها هذا الاخير كتابه وقد جاء فيها: "وقفت على الجزء الأول من كتابك " تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، فقلت لو سميت حياة الجزائر لكان ذلك خليقا، فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية، بعدما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك، وقد نفخت في تلك الصورة من روح إيمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا..." (الميلي، ص9-10) وأما الأستاذ إبراهيم مزهودي فقد وصف كتاب الشيخ مبارك الميلي بأنه بعث للأمة من مولد العدم بعدما وجدها تحيا فوق هذا الأديم بلا تاريخ وأنها كانت تمضي إلى مقبرة النسيان (مزهودي، 1953، ص8).

وكانت شهادة أمير البيان شكيب أرسلان** (الزركلي، 2002م، ص173-174) وسام شرف وشح به الشيخ مبارك عمله كما جاء في رسالته قائلا: " وأما تاريخ الجزائر فوالله ما كنت أظن في الجزائر من يفري هذا الفري، ولقد

** شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان التنوخي، عالم الادب والسياسة مؤرخ، من أكابر الكتاب، ينعت بأمير البيان، من مواليد الشويفات ببلبنان عام 1869م، تعلم ببירות بمدرسة دار الحكمة، يعتبر من أعضاء المجمع العلمي العربي، عاش ببلدان

أعجبت به كثيرا كما أني معجب بكتابة ابن باديس، فالميلي وابن باديس والعقبي والزاهري حملة عرش الأدب الجزائري الاربعة."... "(الميلي، ص28).

ولم تكن شهادة شيخه وصهره محمد الميلي أقل شأنًا من شهادة معاصريه من الأعلام، حيث جاء في رسالته المؤرخة في 24 جويلية 1928م: "... فقد وصلني من إدارة الشهاب الجزء الأول من كتاب تاريخ الجزائر، فلما سرحت فيه الطرف ألفيته فوق ما يرام وقلت فيه بحق ما قاله الأستاذ ابن باديس، وابتهجت فيه ابتهاجا قلبيا خصوصيا زيادة على الابتهاج العام..." (الميلي، ص28).

ب- أحمد توفيق المدني

يعتبر أحمد توفيق المدني أكثر رجال جمعية العلماء اشتغالا بالتاريخ وتدوينا له، فتجده يكتب في العصر القديم الوسيط والحديث، ويحقق المخطوطات كأستاذ تلقى تكوينًا عالي المستوى مكنه من صبر غوار هذا الفن العزيز. وقد تنوع أسلوبه في الكتابة حسب الموضوع الذي يتناوله، فجاء صارم المنهجية العلمية في غالب كتاباته (الجيلاني، 2013، ص157).

ب-1 إنتاجه العلمي وأسلوب كتابته

ترك أحمد توفيق المدني إنتاجا فكريا كبيرا ينم عن معرفة متأصلة ومنهج علمي أكاديمي وأسلوب أدبي راقى ولا أدل على ذلك من كتابه "تقويم المنصور" الذي اقتحم به التأليف المنظم، حيث أصدر جزأه الأول سنة 1922م في 320 ص ثم تلاه الجزء الثاني بعده بعام فالجزء الثالث سنة 1924م، فكان آخر ما أصدره بتونس قبل نفيه منها للجزائر أين واصل إصدار الجزء الرابع عام 1925م فالخامس عام 1930م (يخلف، 2012، ص177).

يعتبر كتاب تقويم المنصور زائرا بشتى العلوم أدبية، جغرافية، وتاريخية بامتياز، كما ضمنه مفاهيم سياسية وذكر لأحداث تاريخية وتراجم لمشاهير الأعلام، فجاء موسوعة فريدة من نوعها تتم عن استبحار الرجل في شتى أنواع المعارف الإنسانية، حيث مكنه اطلاعه الواسع ومتابعته للمستجدات وعنايته بتاريخ الإسلام خاصة وتاريخ الإنسانية بصفة عامة، وإتقانه لأكثر من لغة من إثراء كتابه بشتى أنواع الفنون العلمية مرتبة حسب أبواب.

يقول أبو القاسم سعد الله: ' وكان تقويم المنصور موسوعة للعلوم والجغرافية والآداب والتاريخ والسياسة والحوادث والتراجم، وقد استكتب له الشيخ المدني عناصر بارزة وأقلاما معروفة عندئذ، فأمدته بمادة غزوة في شتى المعلومات. كما أن إطلاعه الواسع واهتمامه بالتاريخ والسياسة والحوادث الجارية ومعرفته باللغة الفرنسية، ونشاطه الجهد، كل ذلك يوفر ثروة طائلة من المعلومات لموسوعته التي كانت تخضع لتبويب حكيم. (سعد الله، ص296).

تنوع أسلوب الأستاذ المؤرخ أحمد توفيق المدني في كتاباته التاريخية وذلك بتنوع المواضيع التي يختار معالجتها أو الكتابة فيها فتجده يستعمل أسلوب الوصف التاريخي للأحداث كما في مذكراته أو في تاريخه المعروف بحرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا فينقل الوقائع بمصداقية ووضوح، ونفس الأسلوب استخدمه في كتاب الموسوم بـ "جغرافية القطر الجزائري" الذي ترك فيه بصمته الإصلاحية، بينما أسهب في وصف تضاريس البلاد وسواحلها (المدني، 1948، 7-13) ويجنح المؤرخ لاستعمال التنميق والسجع الأدبي في كتاباته كما في حديثه عن صقلية الإسلامية من خلال كتابه "المسلمون في جزيرة صقلية" (المدني، 2009، ص27).

ألف الأستاذ أحمد توفيق المدني كتابا تاريخيا سلط فيه الضوء على الحقبة الفينيقية التي كانت مغيبة عند المؤرخين العرب من القدم، (المدني، 1986، ص7) وقد عنوانه بـ "قرطاجنة في أربعة عصور" ردا على مزاعم استعمارية تؤسس لمفهوم مفاده أن أصل بلاد المغرب لآتينى وروماني، فقام يدحض حججهم ويبين أباطيلهم وكان هذا بطلب من الشيوخ ابن باديس ومبارك الميلي رحمهم الله جميعا. (المدني، 1984، ص4).

تنوع أسلوبه في هذا الكتاب بين الوصف والتحليل والاستنباط والمقارنة، فاستعمل أسلوب الوصف في ذكره للخارطة الاثنية التي شكلت الوطن المغربي وقد استفتح بها كتابه وكذا حالة البلاد قبل فترة التاريخ (المدني، ص8-18)، ثم ذكره لأحداث التاريخ الفينيقي خلال حقبة الأربع ووصفه لنظم الحكم فيه وكان هذا المنهج طاعيا على كتابه، وان تخلله استنباط وتحليل هنا وهناك مثلما ذكر في تسمية حنبعل والتي فسر لها أنها عربية الأصل، (المدني، 49) وأما المقارنة فنجد يقارن قوات روما بقوات البونيقيين ويقارن البربر بالعرب محاولا إيجاد أوجه شبه بينهما (المدني، ص159).

أخرج الأستاذ أحمد توفيق المدني "كتاب الجزائر" سنة 1931م (صاري، 1985، 42)، وكان جل ما تطرق فيه يعارض الطرح الفرنسي جملة وتفصيلا (عالم، 2011، ص195)، موجهًا رسالة للشباب المتأثر بحركة التغريب التي مست طائفة لا بأس بها من المجتمع وشريحة كبيرة من الناس الذين جهلوا تاريخ أمتهم (عالم، 2011، ص192)، وقد جاء الكتاب موسوعة متنوعة من التاريخ والجغرافيا والسياسة والاجتماع وأهم ما تطرق فيه الأستاذ هو الحالة

كثيرة على غرار مصر وألمانيا وسويسرا التي عاش بها ما يقارب 25 عاما، رحل في النهاية للبنان مسقط رأسه أين توفي ودفن سنة 1946م، ترك إنتاجا فكريا وسياسيا حافلا.

العلمية والأدبية التي آلت إليها الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي الغاشم، وكذا الخارطة العرقية التي شكلت الوطن الجزائري منذ قديم الزمان.

جاء هذا الكتاب شاملا لمواضيع عدة فتحدث عن المرأة والصحافة، وحث على تأسيس المدارس وتكوين الشباب والعناية بالحرف والصناعات ومما يعاب عليه ضيق الجانب التاريخي المتناول وهو حسب بن شنب لا يتجاوز ربع الكتاب (كعوان، 2011، ص361) ومع ذلك فقد قام بتعرية الوجه الحقيقي للاستعمار الفرنسي وذلك بمقارنة تاريخية بين ما كان عليه حال الجزائر قبل وبعد الاحتلال والمجهودات التي تبذلها فرنسا للقضاء على الموروث الثقافي الإسلامي بالجزائر وتقاعس المدارس النظامية في الاضطلاع بواجبها وصب جام غضبه على الحركات الصوفية بمختلف مشاربها لتخاذلها وتواطئها مع الإدارة الاستعمارية (كعوان، 2011، ص361).

لقي إصدار هذا الكتاب استحسانا كبيرا من رواد الإصلاح وفحول الأدب في الجزائر وخارجها، وهاهو ابن باديس يكتب تقريرا في الشهاب نعت فيه الكاتب بصاحب الروح الوطنية واصفا ما حواه من معلومات بالقوية وبلسان عربي مبين (بن باديس، 1932، ص156-160).

ولم يتوانى شكيب أرسلان في مدح الكتاب والكاتب معا قائلا: " أنه جمع فيه كل ما يلزم معرفته من شؤون الجزائر " (كعوان، 2011، ص364) وقد كان موقف الدكتور حسين مؤنس يسير في نفس النسق، وصار الكتاب مصدرا مهما للباحثين في تاريخ الجزائر (المدني، 2009، ص302).

وأما التاريخ العثماني فقد كان للمؤرخ أحمد توفيق المدني قصب السبق فيه مبدعا ومجتهدا، فألف كتاب حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، تطرق فيه لسقوط آخر ممالك الإسلام في الأندلس سنة 1492م وما أعقب ذلك من تهجير وتقتيل للمسلمين من طرف محاكم التفتيش العام*** (عوض، ص45) (أرمسترونغ، 2005، ص17-78) التي قادها القساوسة والرهبان الكاثوليك. وبينما كانت الممالك الإسبانية تتقوى لطرد بقايا فلور المقاومة التي نظمها الأندلسيون بقيادة محمد بن أمية بجمال البشارة (بشتاوي، 1983، ص116، 149، 150) كانت بلاد المغرب الإسلامي ترزخ تحت نير الحروب الأهلية بين الإمارات الثلاث التي ورثت دولة الموحدين (الميلي، 2007، ص889-891)، في هذه الأثناء كان نجم الدولة العثمانية قد بزغ في سماء القارات الثلاث مطوقا أوروبا من الشرق والجنوب، وقد رفع راية الجهاد بالجزائر الإخوة بربروس الذين سيؤسسون لولاية تابعة للباب العالي (المدني، ص171).

انتقل الكاتب بعدها للحديث عن عزم الملك فرديناند نقل الحرب للجنوب من أجل الاستيلاء على المغرب الأوسط لقمع كل تحركات الأندلسيين، الذين بدأت فلولهم تتجمع بالجزائر لتنظيم المقاومة ضد الغارات الإسبانية والتي توجت بسقوط المرسى الكبير سنة 1505م، ثم سقوط وهران سنة 1509م (بوعزيز، 2009، ص38-42). سار الكاتب على هذا النسق في سرد أحداث هذه الحقبة وكيف استطاع البحارة الأندلسيين التمرکز على السواحل وطرد الأسبان منها، بعد إقناع السلطان سليم الأول**** (محمد، 2006، ص188) (الصادقي، 2009، ص684-690) بالانضمام والانضواء تحت لواء الدولة العثمانية مما شجع عملية إنقاذ مسلمي الأندلس من قبضة محاكم التفتيش ورد الصاع صاعين حيث باءت محاولات شارلكان وغيره من ملوك أوروبا بالفشل الذريع (المدني، 377-392).

تطرق المؤرخ للناحية الأدبية مسلطا الضوء على الشعر الشعبي الجزائري الذي كان يحرض به قائلوه نائب السلطان العثماني لتحرير وهران من الاحتلال الإسباني، ومن هؤلاء الشعراء ابن يوسف الجزائري ومحمد بن علي المهدي (المدني، 466-472).

تضمن هذا الكتاب وثائق جديدة نشرها أول مرة وقد اطلع عليها المؤرخ وفحصها بعدما عثر عليها في متحف توب كابي باسطنبول وبمكتبة الأسكوريال بمديريه فقام بترجمتها ونشرها مستشهدا بها في سياق هذا الكتاب (المدني، 438-443).

للأستاذ أحمد كتاب حول سيرة عثمان باشا داي الجزائر تطرق فيه لسيرة الداي العثماني وشخصيته وحروبه وأعماله ونظام الدولة في وقته وكان صدوره في سنة 1937م (المدني، 1986، ص21) ثم بعد هذا الإصدار كان للأستاذ

*** محاكم التفتيش هو نظام قضائي يتبع المجمع الكنسي أنشأته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لمحاربة بدعة الكاثار جنوب فرنسا وقد أصدر البابا لوسيو الثالث مرسوما بابويا يقضي بإنشاء هذه الهيئة القضائية ثم ظهرت هذه المحاكم بمملكة أراغون بأمر كنسي أصدره البابا غريغوري التاسع سنة 1232م، صار لهذه الهيئة بالغ الاثر في اضطهاد وطرد اليهود والمسلمين وتعذيبهم وحرقهم خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م.

**** الملك الناصر والسلطان الغازي، خادم الحرمين الشريفين، القاهر ظهير الدين والدنيا، ياوز سليم خان الأول بن بابايزيد بن محمد العثماني، ولد سنة 1470م، مات في طريقه لغزو المجر ودفن بمسجد السليمية بالباب العالي سنة 1520م وخلفه ابنه سليمان المعروف بالقانوني.

أحمد موعدا مع تحقيق مخطوط لنقيب أشراف الجزائر الشريف أحمد الزهار، والذي يعتبر بمثابة الجزء الثاني من سيرة عثمان باشا، وقد قام الأستاذ المؤرخ باستنقاذ هذا المخطوط النفيس من أيدي أحد الفرنسيين وهو مسيو ميرانت (المدني، 1974، ص 5-6).

استهل الكاتب الجزء الأول من تحقيقه للمخطوط الذي صدر سنة 1974م بمقدمة توسع فيها بذكر مناقب الدولة العلية، هادما الرأي القائل أن الوجود العثماني بالجزائر كان استعمارا (المدني، 1974، ص 6-8)، ثم ثنى بذكر أحداث متفرقة حدثت في زمنه وترجم بإسهاب لنقيب الأشراف ذاكرة تاريخ ولادته سنة 1781م ونشأته وطلبه للعلم، ثم عرج على والده الحاج علي ذاكرة استقامته وقيامه بأمر الجهاد ومناوشة النصارى، مدرجا بين ثنايا ذلك صورا للمخطوط الأصلي مع هوامشه جريا على قاعدة المحققين الراسخين (المدني، 1974، ص 9-14).

ذكر مؤلف المخطوط وفاة علي باشا بوصبه وتوصيته باستخلاف محمد عثمان باشا، فذكر سيرته وتقلبه من الدنيا ثم زواجه من العلجة أرملة علي باشا مطلقا إياها من الغد، وأما محبته للجهاد وقيامه به وانتصاره في حروبه واستنقاذه لأسرى المسلمين فمشهورة معروفة (المدني، 1974، ص 15-34). وأورد نقيب الأشراف المآثر العمرانية لمحمد عثمان باشا من تشييده لأبراج الحرب لقتال الأعداء وبناء المساجد العامرة وصيانتها وفق العيون وتسهيل جريانها ببناء السواقي وكذا بناء مراكز بحرية للغزو والجهاد والمعروفة بالنجور (المدني، 1974، ص 24).

تطرق المؤلف لجباية العشور والزكاة وتقديم الهدايا والدنوش و كل ما يهدى للباب العالي وما يرد من عند السلطان من هدايا لمختلف الرتب العسكرية ومسؤولي المناصب الحكومية وبيان سيرورة ذلك كله. واصفا حدود البلاد ورتب الضباط والمسؤولين (المدني، 1974، ص 36-48) وقد استدرك المحقق للمخطوط على مؤلفه كل الحوادث التي فاتته في كل عنوان من عناوين الأبواب (المدني، 1974، ص 52-53).

استرسل الكاتب والمحقق في سرد أحداث تلك الفترة التي كانت بمثابة المرحلة الأخيرة من الحكم التركي للبلاد الجزائرية من خلال تقسيم عمله إلى إحدى عشر بابا مذيلا بأحداث الحملة الفرنسية على الجزائر وظهور أولى طلائع العمارة الفرنسية في البحر وبدأ الحصار مع رمي العاصمة بالقنابل، مما أدى لتحطيم برج مولاي حسن وتسليم الداوي حسين البلد للفرنسيين من غير قتال، وكان ذلك من دون إخلال ولا تفريط من المحقق (المدني، 1974، ص 170-175) مع تصويب الأخطاء وتصحيح اللغة الدارجة التي كان يستعملها الكاتب أحيانا.

خاتمة

كانت الكتابات التاريخية للشيخ مبارك المليي نبراسا يهتدى به باعتبارها كتابات ذات روح وطنية وبعد دعوي إسلامي عروبي وان شأنها نقص في المصادر والمراجع إلا أنها أجابت عن سؤالات الهوية وفندت شبهات المستدمر الغاشم وحقق الشيخ مبارك المليي ما كان يصبو إليه وهو رفع الجهل عن أمته بتاريخ الجزائر. بالنسبة لكتابات الأستاذ أحمد توفيق المدني فإنها مناهضة للاحتلال الفرنسي في مجملها مكرسا للوعي الوطني بروح إسلامية وبعد عربي أصيل ونلمس كل هذا من خلال الشمولية التي طبعت كتاباته سواء عند الحديث عن الفترة الاستعمارية، الفترة القديمة أو العثمانية.

ترك أحمد توفيق تراثا تاريخيا زخما ينم عن أصالة في التكوين واستبحارا في جمع المعلومة وتضلعا في معرفة اللغة الأجنبية مما مكنه من الاطلاع على الوثائق التي كانت مغيبة في الأديرة والمكتبات العالمية وكذا الاطلاع على منهج تحقيق التراث وهذا ما مكنه من إخراج مخطوط نقيب الأشراف واستنقاذه من يد الفرنسيين ليخرج عمله للنور ويصير مصدرا مهما من مصادر التاريخ العثماني.

احتفظ الأستاذ أحمد بحق الرد العلمي المؤصل على جملة الانتقادات والتجريحات التي كالهها له الشيخ محمد الطاهر فضلاء والتي ضمنها كتابه " التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح " والتي كان محور الخلاف فيها يدور حول مسألة تأسيس جمعية العلماء وموقفه من اندلاع ثورة نوفمبر المجيدة، فما كان من الأستاذ إلا أن جرد قلمه لرد عادية الشيخ محمد الطاهر في كتابه المشهور " رد أديب على حملة أكاذيب "

إجمالا فإن الكتابات التاريخية العربية إبان الاحتلال الفرنسي جاءت بدافع ديني، علمي وقومي وكذا لتحقيق التصور الأمثل لهوية الشعب الجزائري في إطاره العربي والإسلامي.

المصادر

1. عبد الحميد بن باديس. (1936). خطاب رئيس جمعية العلماء المسلمين. جريدة البصائر. عدد 38.
2. أحمد توفيق المدني. (2009). مذكرات حياة كفاح. الجزائر. دار البصائر.
3. محمد البشير الإبراهيمي. (1997). أثار محمد البشير الإبراهيمي. ط 1. ج 1. بيروت. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

4. أحمد طالب الإبراهيمي. (1997). أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. ط1. ج5. بيروت. دار الغرب الإسلامي.
5. مبارك بن محمد الملي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ج1. الجزائر-بيروت. المؤسسة الوطنية للكتاب-دار الغرب الإسلامي.
6. أحمد توفيق المدني. (1948). مبارك الملي مؤرخ الجزائر، جريدة البصائر، عدد26.
7. أحمد توفيق المدني. (1948). جغرافية القطر الجزائري. الجزائر. مطبعة الشريف.
8. أحمد توفيق المدني. (2009). المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا. الجزائر. البصائر، الجزائر.
9. أحمد توفيق المدني. (1986). قرطاجنة في أربعة عصور من عصر الحجارة الى الفتح الإسلامي. الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب.
10. -أحمد توفيق المدني. (1986). محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791). سيرته حروبه أعماله نظام الدولة والحياة العامة في عهده. الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب.
11. أحمد توفيق المدني. (1974). مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر. الجزائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
12. أحمد توفيق المدني. حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492-1792). الجزائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
13. عبد الحميد بن باديس. (1932). ج3. مج8. كتاب الجزائر، كذلك وبمثل ذلك يؤدي الواجب أيها الجزائري الناشيء، الشهاب.

المراجع

1. الحاج عبد القادر يخلف. (2003). محمد الأمين العمودي شهيد الكلمة والقلم، مجلة عصور جديدة. عدد09. ص141-142.
2. بك محمد. محمد الأمين العمودي سيرة نضال. مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، عدد 25، ص9-11.
3. حورية بوشريخة. (2015). محمد الامين العمودي مسيرة حياة أدب وثورة، مجلة المدونة. عدد2. ص106-109.
4. عبد القادر قوبع. اسهامات محمد الأمين العمودي في الحركة الاصلاحية الجزائرية. مجلة العلوم القانونية والاجتماعية. عدد4.
5. علي مراد. الحركة الاصلاحية الاسلامية في الجزائر. دار الحكمة، الجزائر.
6. سليمان بشنون. (2012). الجذور الشعبية في الحركة الاصلاحية. الجزائر. دار هومة.
7. خير الدين شترة. (2009). اسهامات النخبة الجزائرية في الحياة الفكرية والسياسية التونسية 1939م. الجزائر. دار البصائر للنشر والتوزيع.
8. اسيا تميم. (2008). الشخصيات الجزائرية مائة شخصية، الجزائر. دار الملك، الجزائر.
9. محمد بلقاسم. (2013). وحدة المغرب العربي فكرة وواقع الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي 1910-1945م. ط1. الجزائر. دار البصائر الجديدة.
10. لخضر بوطبة. الشيخ ابراهيم بيوض وجهوده في الاصلاح الاجتماعي بالجزائر، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية. د ت، عدد2.
11. بن رحال أمينة. (2006). الشيخ ابراهيم بن عمر بيوض ونشاطه السياسي والثوري في الجزائر. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية. عدد11.
12. عبد الكريم بوصفصاف. (2009). جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوير الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945م. الجزائر. عالم المعرفة.
13. أسعد لهاللي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والثورة التحريرية الجزائرية (1954-1962م)، أطروحة دكتوراه-علوم، غ م، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة منثوري، قسنطينة، 2012م.
14. - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1992م، ط1، ج3.

15. - ميسوم بلقاسم. (2012). الكتابات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية، 1830-1962م دراسة تحليلية، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراة، جامعة الجزائر.
16. مسعود كواتي. (2011). شخصيات جزائرية مواقف وأثار ونصوص. ط1. الجزائر. دار طليطلة.
17. الجيلالي صاري. (2007). بروز النخبة المثقفة الجزائرية 1850-1950م، الجزائر منشورات الوكالة الوطنية للنشر والتوزيع.
18. بوضرساية بوعزة. (2007). رواد المدرسة التاريخية الجزائرية. الجزائر. دار الحكمة.
19. رشيد مياد. (2020). الشيخ مبارك الميلي المؤرخ. عرض لحياته ومنهجه في الكتابة التاريخية. مجلة الباحث. عدد3، مج12.
20. علاوة عمارة. (2008). الشيخ مبارك الميلي ومواجهة المشروع الفرنسي لكتابة تاريخ الجزائر، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، عدد3.
21. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ط1. ج7. بيروت. دار الغرب الإسلامي، بيروت.
22. ابراهيم مزهودي. (1372هـ/1953). ذكرى الشيخ مبارك الميلي- جريدة البصائر، عدد 220.
23. - ضيف الجيلاني. (2013). بناء المجد توفيق المدني. الجزائر. دار الخليل. الجلفة.
24. حاج عبد القادر يخلف. (2012م). المؤرخ أحمد توفيق المدني ومذكراته حياة كفاح. مجلة عصور الجديدة. عدد خاص(3-4).
25. الجيلالي صاري. (1985). أهمية كتاب الجزائر، مجلة التاريخ، ع18، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
26. محمد غالم. (2011-2012). براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي الاصلاحى أحمد توفيق المدني أنموذجا. مجلة عصور جديدة، ع3-4.
27. فارس كعوان. (2011-2012م). المؤرخون الجزائريون ونمو الوعي التاريخي. أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في التاريخ المعاصر. اشراف، عبد الكريم بوصفصاف، قسم التاريخ وعلم الآثار. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة منتوري. قسنطينة. 2011-2012م.
28. رمسيس عوض. محاكم التفتيش. بيروت. دار الهلال.
29. كارين أرمسترونغ. (2005). النزعات الاصولية في اليهودية والمسيحية والاسلام. ط1. دمشق. دار الكلمة-دار الحصاد.
30. عادل سعيد بشتاوي. (1983). الأندلسيون المواركة. القاهرة. دار المقطم.
31. يحي بوعزيز. (2009). مدينة وهران عبر التاريخ. الجزائر. دار البصائر.
32. - فريد بك محمد. (2006). تاريخ الدولة العلية العثمانية. ط10. بيروت. دار النفائس.
33. - أحمد بن لطف الله السلانيكي الرومي المولوي الصديقي. (2009). كتاب جامع الدول قسم سلاطين ال عثمان، تح، غسان بن علي الرمال. بيروت. دار الشفق للطباعة والنشر.